"مسرحية حزن قديم، مكتوبة بالدموع والدم"

مع رحلة يوم طويل إلى الليل، يقدم مسرح زويدبول (Zuidpool) تكييفاً لإحدى المسرحيات الأكثر أسطورية من المسرح الغربي. تحدث الصحفي يان درتالن مع صانعي هذا العمل كون فان كام ويورغن كاسير.

لم يقم يوجين أونيل باللفّ والدوران لما وصف رحلة يوم طويل إلى الليل بأنها مسرحية عن "الحزن القديم، مكتوبة بالدموع والدم". فهي تحفة فنية، سيرة ذاتية كتبها الحائز على جائزة نوبل في آخر سنواته، والتي تبدو وكأنها عملية استكشافية في روح الكاتب. كان قلمه قد نشف منذ فترة، لكنه غمسه بالحبر مرة أخرى لكتابة هذه المسرحية.

يورغن كاسير: "كان أونيل قد توقف بالفعل عن الكتابة منذ فترة عندما بدأ بكتابة هذه المسرحية. أجده شيئاً عجيباً للغاية أن يواصل الفنان عمله بعدما ودع المهنة. الناس الذين لديهم القوة للاستمرار في الإبداع غالباً ما تنتج عنهم أشياء غير مسبوقة. هذه المسرحية تم وضعها في الخزنة. سجل أونيل أنه لا يمكن خروجها إلا بعد خمسة وعشرين عاماً من وفاته. كتبها في نهاية حياته وفقط لنفسه".

كون فان كام: "كان لديه علاقة إشكالية جدا مع أطفاله وأحبائهم وأراد البحث في ما وراء ذلك. لذلك كان عليه أن يعود إلى الأسرة التي نشأ فيها. هذه المسرحية عن أسرة تايرون ومن الواضح أنها مستوحاة من أسرته: الأب الخائب الذي كان في يوم من الأيام ممثلا واعدا، الأم الوحيدة والمدمنة على المورفين، الأخ الساخر الذي أدمن على المسكرات. توفي والديه وأخوه منذ فترة طويلة، ولكن في هذا النص حاول استدعاء أرواحهم من جديد. أراد مواجهة شياطينه ومعرفة أين بدأ التدهور."

"كانت عملية الكتابة بمثابة جحيم من العذاب. عمل على هذا النص خلال مدة عامين وفي تلك الفترة كان لا يمكن التعامل معه. بالليل، كثيرا ما كان يخرج باكيا من غرفة الكتابة بعد أن كتب نصف صفحة. فعلى زوجته أن تهدئه وغالبا كانت تنجح فقط بعد أن تسقيه المسكرات. أفهم أنه فكر في النهاية: فلتُحبس المسرحية في الخزنة. لكن زوجته أصدرتها بعد عامين من وفاته لأنها لا تريد أن يُنسى أونيل".

تركت النشأة في تلك العائلة المفككة لديه صدمة لم يقدر أبدا على معالجتها. وفي الواقع، ألم يستمر في ديناميكية تلك العائلة عندما أصبح أبا هو بدوره؟

يورغن: "لقد كان يشبه لوالده للغاية: بعيد، غالباً غائب، بالكاد كان يمكنك الحديث معه. مع اختلاف أن والده لا يزال يدعو أطفاله إلى منزل الصيف، بينما لم يعد يوجين يريد رؤية أطفاله. لذلك أراد أن يضع النص في الخزنة: إنها وقاحة بحق الأجيال القادمة أن تندب طفولتك البائسة، مع العلم أنك منحت أولادك بدورهم طفولة مروعة ".

في أي شخصية يمكننا التعرف على أونيل نفسه؟

يورغن: "لقد ظهر بشكل خاص في إدموند، الابن الأصغر. في مكان ما يقول إدموند "سأعشق الموت إلى الأبد" وكان من الممكن أن نسمع هذا الكلام من أونيل. في الحقيقة، أمنية إدموند هي أن يختفي ويتبخر في الضباب".

كون: "قصة حياة إدموند تشبه سيرة أونيل الذاتية. في سن الثامنة عشرة، هرب أونيل من منزل والديه بحثاً عن مكان يشعر فيه بالراحة. أثناء أسفاره في البحر وعبر أمريكا الجنوبية، كان في حالة اكتئاب وبدأ يشرب بكثرة، لدرجة أن الشرب كاد يقتله. بعد محاولة انتحار فاشلة والإصابة بالسل، ألزمه والديه بالمصحة. بعد ذلك فقط بدأ يأخذ الكتابة على محمل الجد. في المسرحية اكتشف إدموند أيضا أنه مصاب بمرض السل. فأحداث المسرحية تعود لتلك الفترة الصعبة قبل بداية حياته المهنية".

يورغن: "عندما يتحدث إدموند عن كونه كاتباً يقول: "إني أتمتم فقط". في هذا القول أيضاً يمكنك سماع صدى صوت أونيل. لا أعتقد أنه كان يثمن كتاباته. لقد احتضن عمله بالطبع وعلق عليه أهمية، لكنني لا أعتقد أنه اعتبره من الأدب العالمي. بل، أعتقد أنه وجد نصوصه عادية جدا".

كون: "وهذا بالطبع كان هدفه: أراد تقريب المسرح من الواقع عبر كتابة ما رآه يحدث من حوله، وكيف يتحدث الناس، وكيف يتصرفون. كان فخره يكمن أساسا في حقيقة أنه كان أول من أدخل القصة الأمريكية إلى المسرح. بمسرحيات مثل القرد الكثيف الشعر يبدأ تاريخ المسرح الأمريكي في عشرينيات القرن الماضي. قبل ذلك كان المسرح الأمريكي يقوم أكثر على الإستلهام من بريطانيا."

تبدو المسرحية وكأنها رحلة جحيم عاطفية: الحوارات وحشية، فهي مليئة باللوم والمرارة ولكن في نفس الوقت تحاول الشخصيات التعبير عن عاطفتها وحنانها ورحمتها.

كون: "ليس من السهل التعامل مع ذلك على خشبة المسرح. لاحظنا أنه لا ينبغي التأكيد على هذا الإرتباط، بل يجب أن تفعل العكس تماماً: كلما تعاملت الشخصيات على الخشبة مع بعضها بلا حب، كلما بدأ الجمهور يشعر بالمودة والعاطفة أكثر. إنْ بحث الممثلون عن الحب في المسرحية، ينتهي بهم الأمر في طريق مسدود".

يورغن: "كلما زاد إحباط شخصية ما تجاه الأخرى، كلما كان الأمر أكثر غرابة أنهم ما زالوا يجلسون معاً ويواصلون الحديث".

هل لأنهم يعرفون أنهم محكوم عليهم ببعضهم البعض؟ وأن الوحدة التي تنتظرهم في العالم الخارجي حتى أكبر؟

كون: "هذه أسئلة تطرحها فقط عندما لا تفهم سبب بقائهم معاً. هؤلاء الناس ليسوا مناسبين للعيش في العالم الخارجي. إنهم يعرفون بعضهم معرفة عميقة ويعرفون ما لم يعد عليهم توقعه من الآخر ومع ذلك يبقون في مكانهم، في البنية التي صنعوها بأنفسهم".

يورغن: "من بين كل القصص التي ترويها الشخصيات، أصدق فقط القليل منها. قد يكون هناك أساس من الحقيقة، لكن، عدا عن ذلك، فالشخصيات تساهم فقط في الصورة التي تريد تكوينها عن نفسها. يدرك الآخرون ذلك تماماً، لكن بدلاً من أن يحاولوا كشف الكذب، يدعموه. هذا يعبر عن المودة: أن تدرك أنه لا يمكن للآخر أن يكمل حياته بدون أوهامه، ولذلك تسامحه. على الرغم من أن الحوارات تبدو قاسية في بعض الأحيان، إلا أن هناك تساهلاً مع أحلام الآخر وأوهامه. عندما يعترف الأب في النهاية وفي لحظة سكر بأنه بخيل، فإن هذا الإعتراف ليس بالكشف المفاجئ. لقد سمعه الجميع يقول هذا مئة مرة، وهم يتركونه يحدث".

كون: "كان أونيل حريصاً على الأوهام التي يحيط بها الناس أنفسهم، والطريقة التي يبنون بها هويتهم والعالم من حولهم. بفضل هذه البناءات، يبدو أن هناك نظاماً في الفوضى، لكنها في الوقت نفسه تمنعك من رؤية العالم كما هو بالفعل. لقد عارض دائماً بشدة فكرة أن هذه الأوهام تعتبر حقيقية. كان أونيل لا يرى إلا مثل هذه البناءات عند الآخرين. أراد اختراقها وكشف طبيعتها المصطنعة".

"فقط في أعماله الأخيرة توصل إلى استنتاج مفاده أنه على الرغم من أن كل شيء بناء مصطنع، لا يمكن للإنسان الاستغناء عنه. وأنه ليس من المنطقي منع ذلك. هذا الفهم لن تجده في أعماله السابقة. تلاحظه في الطريقة التي يكتب بها عن والديه وأخيه في رحلة يوم طويل إلى الليل: يفحص كيف أصبح هؤلاء الأشخاص متشابكين مع أوهامهم وهوياتهم التي صنعوها بأنفسهم. تنص مقدمته القصيرة على أنه "كتب

هذه المسرحية بشفقة عميقة وتفهم وتسامح لكل من الأفراد الأربعة المسكونين لعائلة تايرون". وجد التعاطف والتفاهم، وأخيراً منح الإنسان أوهامه".

ينتابك الشعور بأن الشخصيات محاصرة في هياكل هوياتها، ويبدو أن الجميع عالق فيها تماماً. هل هناك نوع من التطور في المسرحية؟ هل تمر الشخصيات بتغيير؟

يورغن: "التطور الرئيسي هو مدى استسلامهم لإدمانهم. من كأسة خمر قبل العشاء إلى ليال كاملة من السكر، ومن كمية صغيرة جداً من المورفين إلى جرعة زائدة تقريباً. رعب الإدمان موضوع مهم في المسرحية. كيف يعيق الإدمان الإنسان. كيف يمكن لإدمانك أن يقودك إلى حد الإنقلاب على عائلتك من أجل الحفاظ عليه".

كون: "يقدم لنا أونيل شخصيات تجد نفسها في حالة من الجمود، وهي حالة لا يمكن فيها التحرك. مثل صورة ثابتة من فيلم، صورة تم إيقافها. كانت علاقته مع والديه مضطربة، ولم تتغير تلك العلاقة حتى وفاتهما. عندما فاز بجائزة بوليتسر، أدرك والده أخيراً موهبته ككاتب، لكن كلا والديه توفيا بعد ذلك بوقت قصير. في الواقع، لم يتغير شيء على الإطلاق. الوضع الذي يصفه هنا هو الذي انتهت فيه علاقته مع عائلته".

يورغن: "ليس هناك الكثير من التنفيس. في الولايات المتحدة تعتبر هذه المسرحية مأساة أمريكية بامتياز لكننا لا نوافق على ذلك. هناك مأساة في الشخصيات، لكن المسرحية بالتأكيد ليست مأساوية بطريقة كلاسيكية. في المأساة الكلاسيكية هناك بطل، شخص في مكانة محترمة ويمكنه السقوط. هذا النوع من الشخصيات ليس موجودا في هذه المسرحية".

كون: "العنصر المأساوي الوحيد هو القدر. ترى أشخاصاً يبذلون جهداً لتجنب مصيرهم، ومع ذلك يقعون في فخه. لكن لا يوجد تنفيس فيما كتبه أونيل. كان التنفيس بالنسبة له في عملية الكتابة نفسها".

تلعب اللغة دائماً دوراً مهماً في عملكما. كيف تتعاملان مع عنصر اللغة في هذه المسرحية؟

كون: "كل شخصية تتكلم لغة مختلفة. ثلاثة من الممثلين الأربعة يتحدثون بلغتهم الأم، أي الهولندية والفرنسية والعربية المشرقية. يلعب تايمن غوفارتس (وهو بلجيكي ولغته الأم هي الهولندية) دور إدموند وطلبنا منه التمثيل باللغة الإنجليزية".

يورغن: "كنا نبحث عن شكل مسرحي نضيفه إلى هذه المادة. من خلال جعل كل شخصية تتحدث بلغة مختلفة، يشعر الجمهور تلقائياً بالعزلة. بصفتك متفرجاً، فأنت تفهم بشكل أسرع أن هؤلاء الأشخاص

كيانات منفصلة. إنهم جميعاً في جزرهم الخاصة، وهم وحدهم في تلك الجزر. اللغة توجه تفكيرك وتساعد في تحديد هويتك. لأن كل منهم يتحدث بلغة مختلفة، فإنك ترى كيف يوجهون الكلام إلى بعضهم بدون التكلم مع بعضهم وتفهم مدى إشكالية التواصل بين هؤلاء الأشخاص".

"عندما يتحدث الممثل بلغته الخاصة يجلب معه أيضاً تقاليده المسرحية. وهناك اختلافات كبيرة. من المثير للإهتمام أن ترى الإصطدامات. كما أن ذلك يعزز فكرة أن جميع الشخصيات محاصرة في بناءاتها المفبركة والإصطناعية".

كون: "لقد أجرينا تعديلاً هيكلياً إلى حد ما على النص الأصلي. خاصةً بسبب هذه التعددية اللغوية، ولكن أيضاً لتجنب أي شكل من أشكال الإسهاب واختزال اللغة إلى جوهرها المطلق. هؤلاء الناس يتشاركون نفس الدم ونخاع العظام نفسه. لا يجب أن يقال كل شيء. يتعلق الأمر إلى حد كبير بما لا يقال. يتعلق بالحالة التي هم فيها وبما يمكننا أن نفهمه وراء كلماتهم وبين الأسطر: خيبة الأمل في أنفسهم والآخر، والتوبيخ والإتهامات، والغيرة والندم، والشك وكراهية الذات، والعاطفة والمحبة. تمكن أونيل من كتابة مسرحية شبيهة بغرفة صدى تصطدم فيها كل تلك المشاعر المتضاربة وتردد صداها".

ستعرض رحلة يوم طويل إلى الليل في مسرح زويدبول (Zuidpool) في أيام 15 و 16 و 17 و 18 من مارس/ آذار 2023. بعد ذلك، تعرض المسرحية في بروج، ديلبيك، بيفرين، ميخلين، بروكسل، هيرنتالز، غنت، هاسيلت، مينين ، إس-هيرتوغنبوش، ماسميخلين، أمستردام، لاهاي، آلست وويلريك.

ترجمة : لـوري بـــاتن